اغنياء الدُّنيا وكيف اغتنوا

(تابع ما قبلهُ)

ان اغنى اهل اوربا واميركا رجلٌ اميركيٌّ يسمَّى گولد تبلغ ثروتهُ ٢٧٥ مليون فرنك ودخلهُ السنوي سبعين مليون فرنك وعمرهُ خمسون سنة واصلهُ ابن فلاح في مدينة نيويورك . لم يتوسم ابوهُ فيهِ النجابة من صغرهِ ولا قدَّر لهُ النجاح فاعطاهُ عشرة قروش وحلَّهُ من الثياب وألقى لهُ الحبل على الغارب قائلاً اذهب في طلب رزقك وابحث عن رغيكَ بسعيكَ فالانفاق عليك لا يغني فتيلاً . فخرج من بيت ابيهِ وهو ابن احدى عشرة سنة وعارك ابناء الزمان عراك الابطال الكبار لا الاولاد الصغار فلم يتمَّ سنتهُ الرابعة عشرة حتى تملَّك ارضًا وصار عونًا لبيت ابيهِ فاقام اباهُ مدبِّرًا لارضهِ وتعلَّق على دراسة الهندسة العالية والمرانة عليها بعزم ثابت وجدٍّ فائق حتى حصَّل شهادة المهندسين وباشر الاعمال العمومية وهو ابن ثماني عشرة سنة وتولَّى امر العمال واختبر سياسة الرجال فتنبَّلت عليهِ وطأة الانصاب واصابتهُ فرض شديدًا ولكنهُ لم يثنهِ حتى عاد الى الاعمال بعزم احدَّ وجُهود اشدَّ فانشأ مدينةً وسمَّى مدينةً باسمهِ وحصَّل من الثروة مئة الف ريال (او عشرين الف ليرة انكليزية) وزادها عشرة اضعاف في سبع سنين وامتلك سككك الحديد الممتدة بين الاساكل الواقعة على سواحل بحيرة آري وبين المدن التي في داخل الولايات

ولما كثر حسَّادهُ وقوي خصومهُ كما في حال المفلحين من البشر فاراد ان يوصل خطًّا من الخطوط بخط سكة الحديد المتصل بنهر سسكومنا فنازعهُ خصومهُ واقاموا عليهِ دعوى منعوهُ بها من اتمام مرادهِ . فلما رأى انهُ لا يستطيع مشترى الخط وان خصومهُ يرومون التنكيل بهِ أبى الاَّ تسيير القطار عليهِ قوةً واقتدارًا واقام رجالهُ واعوانهُ على الطريق فامتنع عليهِ خصومهُ وقاموا لدفع القوة بالقوة وصد قطار القطار بالاقدام والاصطدام فاحمى گولد قطارهُ حتى تأبَّد بخارهُ واطلقهُ في مئةٍ ونيف من اعوانهِ من طرف الخط الواحد واحمى خصومهُ قطارهم واطلقوهُ في مئةٍ ونيف من اعوانهم من طرف الخط الآخر فاصطدم القطاران في اواسط الخط وحطَّم اقواها واسرعها اضعفها وانطأها وقُتل كثيرون من العمال والاعوان وخرج گولد فائزًا منصورًا من معمعة هذا القتال الغريب الحال والاهوال . ثم رافع خصومهُ وبذل انهُ اشترى بالمال القضاة وولاة الاحكام واصحاب الجرائد فأيَّدوا دعواهُ واغضوا عن مساوئهِ

ولكنهُ ما لبث ان خاطر بحياتهِ وفدى المال حتى خاطر بالوكلو فدى الجاه وزيادة الثروة والكسب وذلك انهُ بعد انتصار الولايات الاميركية الشمالية على الولايات الجنوبية وقيام الجنرال گرانت رئيسًا على الجمهورية كانت المعاملة بالاوراق اعم من المعاملة بالفضة والذهب وكانت قيمة الذهب عالية جدًّا لاحتكار فئةٍ صغيرة لهُ من اهل الثروة اغنامهم واقواهم گولد المترجم بهِ حتى كان زمام النقد كلهِ بيدهِ يديرهُ كيف شاء وانما فاتهُ التصرُّف بخزينة الجمهورية فوضع على رئيسها العيون والارصاد ليتتبعوا سياستهُ ويعلموا ما يكون حكمهُ في تصريف مال الخزينة ولكن خفيت سياسة الرئيس عليهم فارجس گولد خيفةً في نفسهِ وظنَّ ان في ذلك شركًا لهُ . لان هبوط سعر الذهب يفضي الى هبوط اسعار اسهم السكك الحديدية التي كان لهُ جانب كبير منها وكانت الامَّة تلحُّ على الحكومة ان تدفع لها ذهبًا وفضةً وتستهلك جانبًا من القراطيس التي عليها حتى يتعامل الناس بالمعدن ويهبط سعر الذهب عما كان

وكان گولد يسعى ليعلم ما اذا كانت الحكومة تجيب طلب الامة او ترفضهُ فاختلق مسعاةً ولذلك اولم وليمة فاخرة حضرها الجرائد واذاعت خبرها في الآفاق ودعا اليها رئيس الجمهورية واعيان البلاد آملاً ان يستشف ما في نفس الرئيس في اثناء الحديث او ان يوهم الامة بانهُ على اتفاقٍ مع الحكومة . وفي اثناء الوليمة اكثر هو واعوانهُ الاسئلة على الرئيس فلم ينالوا المطلوب ولكن لحظوا انهُ يقصد اجابة طلب الامة . ويقال ان گولد عرض في الغد نصف مليون من الذهب على رجلٍ ذي مكانة عند الرئيس على شرط ان يقنع الرئيس والوزراء بالزام الخيادة والاغضاء عن مطالب الامة فابوا

وكان سعر المئة من الذهب يومئذٍ يساوي سعر ١٤٠ من القراطيس فعلم گولد يومًا من بعض الذين يثق بهم ان الحكومة عازمة على ترويج الذهب بين الناس اجابةً لمطالبهم ففاجأهم في شهر ايلول (سبتمبر) برفع سعر الذهب وابلغهُ في عصيرة ذلك اليوم الى ١٤٤ مشتريًا مبلغ ١٢٠٠ مليون فرنك . وكان ذلك امرًا لم يسبق اليهِ في تلك البلاد فتوقفت الاشغال والاعمال اياماً وتحولت كل الانظار الى گولد وكان الذهب يتدفق عليهِ من اوربا وسائر الاقطار تدفق السيول الغزار حتى قل الوارد منهُ على بنكي لندره وفرنسا . وكان التلغراف ينقل اخبار الشراء والمبيع بالملايين . وما زال سعر الذهب يتصاعد حتى زاد ٣٠ في يومين فبلغ ١٦٠ وگولد يبتاعهُ بالملايين فهاجت الامة وماجت وعلَّق الناس الاعلانات في الشوارع يطلبون رأس گولد بدعوى انهُ يروم هلاك الامة وانتقاض الجمهورية وهو جالس في غرفةٍ محفوفة بالرجال الاشداء المسلَّحين ليدفعوا عنهُ هجوم الرعاع غير مبالٍ بالتهديد والوعيد ولا تلقى بهرجهم ومرجهم بصدر

اوامره بالبيع والشراء والتلغرافات تتوارد عليه من جهات العالم كله وكان بعض السماسرة الالمانيين قد اشترى له بقيمة مئتي مليون من الذهب في بضع ساعات فجنّ مما سمع من التهديد والوعيد واصابت سمسارًا آخر رصاصة في رأسه فاطارت دماغهُ

ولما رأى الصيارفة والتجار ما فاجأهم من ارتفاع سعر الذهب وانحطاط اسعار القراطيس توقّف سبعة وعشرون بنكًا من بنوكهم عن الدفع وافلس عدد عديد من اعظم بيوتاتهم التجارية وخرجوا يشكون الى الحكومة ما اصابهم بدهاء گولد واقتداره فاجتمع الرئيس والنظار حالاً وامروا ناظر المالية ان يبيع ما عندهُ من المتاع ويسلم الصيارفة مبلغ ٢٢٠ مليونًا . ولكن گولد سبقهم الى الخوط وفاز على الشعب والحكومة وخرج من تلك المعمعة التجارية ظافرًا غانمًا رابحًا من الثروة ما لم يربحهُ احد سواهُ وسبق اهل الارض في المال والغنى وسمّي ملك السكك الحديد بلا مناظر ولا شريك

وكما يلقّب جاي گولد بملك السكك الحديدية يلقب كرنيليوس فندربلت بملك السفن التجارية ولو لم يفقهُ گولد في السكك الحديدية لاستبدّ وحدهُ باللقب في الثنتين فانهُ قضى خمسين سنةً من عمره فائقًا في الغنى جميع ابناء بلاده سابقًا لهم في الجاه مترئسًا على اهم خطوط السكك الحديدية متملكًا لاشهرها . ولد سنة ١٧٩٤ وابوهُ هولنديٌّ هاجر الى الولايات المتحدة وولد ثمانية عشر ولدًا غيرهُ وكان فلاحًا فقير الحال ينقل حاصلات ارضهِ بزورق على نهر هدصن فعلّم ابنهُ الذي نحن بصددهِ الزورق فجعل يعبّر بهِ الناس من ضفة الى ضفة فعُرف بينهم ببراعتهِ في الملاحة وقوتهِ وشدة نشاطهِ وجراءتهِ واقدامهِ ولذلك فُوّض اليهِ تموين ست قلاع بالزاد والذخائر في حرب سنة ١٨١٢ فحصّل من المال ما يكفيهِ لفتح بيت وتزوج وهو ابن تسع عشرة سنة

ولما بلغ الثالثة والعشرين من العمر كان مالهُ تسعة آلاف ريال وكان لهُ زوارق كثيرة شراعية ثم دخلت السفن التجارية فادرك فضلها وعلم ان زوارقهُ لا تستطيع سبقها ولا مجاراتها فباعها كلها واستخدم في باخرة من تلك البواخر واقام فيها الى سنة ١٨٢٩ وحصّل ثروة تذكر

وفي سنة ١٨٤٦ كانت ثروتهُ تساوي ٧٥٠ الف ريال وكان من اهالي نيو يورك المعدودين اذ لم يكن بها غير ستة عشر من الذين فاقت ثروتهم مليون ريال وهي ثروة لا تذكر اليوم بين اهالي تلك المدينة . وولد اربعة صبيان وتسع بنات فربّاهم تربية صارمة اذ كان بالطبع صارمًا عاتيًا ولم يكن يحب بكرهُ وليم هنري وكان يكره ابنهُ الثاني ويحب ابنهُ الصغير فعلّمهُ وهذّبهُ في مدرسة من مدارسهم الكلية واما ابنهُ الثالث فمات صغيرًا . ووضع بكرهُ في بنك منذ نعومة اظافرهِ باجرة مئة وخمسين ريالاً (٧٥٠ فرنكًا) في السنة وكان ابنهُ هذا مثلهُ في الثبات والهمّة فافلح

وبلغت اجرته الف ريال في الصفة بعد مضي ثلاث سنين من دخوله البنك . ثم هوى فتاة وكلم اباها بزواجها فقال له ابوها وتم نصيبان ومالا يومئذٍ يزيد على المليون . قال بالصفة عشر ريالاً التي اقبضها كل اسبوع فقال له اني أُعيد عليك ما قلته لك مراراً وهو انك أبله احمق وستبقى ابله احمق كل ايامك . ومنذ كانت بركته التي باركه بها ومنذ كانت هدية عرسه منه فتزوج الفتاة وتكاثرت عليه الاشغال فمرض وتعذر عليه السود الى اشغاله فاضطر ابوها ان يبتاع له قطعة ارض ويبنيها اياها قائلاً أنم على حراثتها فقد قُدّر على هذا البيت ان يكون كل اهله حرّاثاً سواي

وفي سنة ١٨٤٨ اكتشفت مناجم الذهب على ضفاف نهر سكرمنتو فهاجر الناس اليها افواجاً وكانت شركة الباسيفيكي تنقل الركاب من مدينة نيويورك الى مدينة سان فرنسسكو باجرة ثلثة آلاف فرنك على المراكب فجعل فندربلت ينقلهم بنصف ثلث الاجرة فربح تلك الارباح الناجحة حتى بلغ دخله السنوي خمسة ملايين واستمر كذلك سنين عديدة . وخطر له سنة ١٨٥٣ ان يستريح من اتعابه ويسافر الى اوربا سائحاً متنزهاً وكان يومئذٍ من اغنى الناس يساوي دخله دخل كبار الملوك ولا تقابل نفقاته بنفقاتهم . فابتنى باخرة من الباخرات الحسان جعل محمولها الفي طنٍ وزينها بابهج زينة وزخرفها بابهى الزخارف حتى صارت كالقصر المزين على متن الامواج ثم سافر بها مع عائلته سائحاً في انكلترا وفرنسا وايطاليا وروسيا وتركيا وادهش اوربا بما كان فيه من الابهة والجاه والترف والنعيم . ولكنه لم ينسَ ما كان عليه وهو فقير الحال رثّ الاسمال فلما بلغ مدينة نيويورك راجعاً ارسى بباخرته تجاه الكوخ الذي كانت والدته فيه فاطلق لها واحداً وعشرين مدفعاً سلاماً واحتراماً وقضى عندها يوماً كاملاً يقص عليها ما شاهده في سفرته من العجائب والغرائب

ويتبين ما كان فندربلت عليه من الحزم والاقدام والصرامة والجفاء من النادرة التالية وهي انه لما انتشبت الحرب الاهلية بين اهل الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ارسلت الولايات الجنوبية على الشمالية باخرة حربية سريعة السير خفيفة الحركة اسمها مريماك فاوقعت ببواخرهم الحربية واستأسرت سفائنهم التجارية وارهبت ملاّحيهم حتى بعثوا عليها باخرتهم المسماة مونيتور فضيّقت عليها وحصرتها في بعض الجوَن . ولكن خشي اهل الشمال انها تخرج من الجون وتفلت من يد المونيتور لزيادة خفتها وسرعتها فتعود الى ما كانت عليه من المضرّة والسلب . فاستدعى لنكن رئيس الجمهورية يومئذٍ فندربلت الذي نحن بصدد وسأله قائلاً كم تطلب منا اجرة مضايقتك للباخرة مريماك وحصرها حتى لا تستطيع الحراك . فاجابه قائلاً اذا رمتَ مساعدتي فاني ما كنت لابيعها بالمال ولا لاساوم في ثمن الافراج عن وطني . فوجم الرئيس ولم يعلم

باذا يكلمه . ثم استأنف فندربلت الكلام فقال عندي سفينة تضارع المريماك حجماً وسرعة فدعني بالرجال وانا اتولى حصرها في مكانها وانما اشترط عليكم شرطاً واحداً وهو ان اكون مستقلاً في افعالي وحركاتي غير متعلق باوامر وزارة البحرية

فاجابه الرئيس الى ذلك شاكراً وبعد ستٍّ وثلثين ساعة من مقابلتها كان فندربلت في مدخل الجون الذي كانت المريماك فيه راكباً سفينة فندربلت وهي امتن سفنه واسرعها رسم بناءها بنفسه وانفق عليها ما لم ينفقه على غيرها وسمّاها باسمه وكان يفضلها على كل سفائنه . وتولى ادارتها حينئذٍ بنفسه وعمرهُ سبعٌ وستون سنة . فلما دخل الجون فرح حامية القلعة التي هناك واتاهُ قائدهم يقول ماذا تطلب مني ان افعل امداداً لك . فقال له على جاري عادته ان تلزم الهدوء وتكفّ عني اثناءك لاقضي امري بنفسي ثم حاصر بارجة العدوّ وضايقها مضايقة شديدة حتى لم تجسر على محاولته فسلمت له كرهاً

ثم انهُ ولّى بعض القواد ادارة سفينته واباح للحكومة استعمالها الى نهاية الحرب التي تكفل فيها باصغر بنيه واحبهم اليه . وبذل على الحرب كثيراً من المال تبرُّعاً . ولما انعقد السلم ابقت الحكومة سفينته في نيضنها وفرّ فرار مجلس الشيوخ على ان تذهب لجنة منهم اليه وترفع شكر الامة له على كرمه وبذله فقابلهم فندربلت بوجه عبوس قائلاً اكذا يكون تصرف الامم العظيمة باموال رعاياها فكيف يحق لكم ان تملكوا ما ليس لكم بل هو عارية عندكم فخجلت اللجنة من كلامه وقالت ان الحكومة لم تبقِ سفينتك عندها الاّ عن خطا في الفهم وستردها غداً اليك فاجابهم ابقوها لكم ما زلتم قد اخذتموها فعندي كثير غيرها وانا في غنًى عنها . وكان عندهُ نحو مئة سفينة غيرها تجوب البحار كل الاقطار

ولما رأى ان أحب بنيه اليه قد قتل على آماله بابنه الاكبر فجعل يراقبه في اعماله دون ان يساعدهُ بشيء او يريهُ اهتمامًا . وكان ابنهُ يحمل المشاق في فلح ارضه وزرعها وهو مع ذلك في هناء وطيب عيش . واتفق انهُ اتى اباهُ يوماً طالباً ان يشتري منهُ زبل اسطبلاته سماداً لارضه وينقله في زورق استأجرهُ فقال ابوهُ كم تعطوني ثمن الحمل قال اربعة ريالات فقال بعتك وهو يقول ان ابني هذا لا يصلح لعمل ولن يصلح فمن سمع ان الحمل يباع باكثر من ريالين . وفي الغد وقف ليرى ما الذي نقلهُ ابنهُ فوجد زورقهُ ملآن وهو ينشر الشراع للسير فيه فقال له كم حملاً اخذت قال لم آخذ الاّ حملاً واحداً فقال ان في الزورق اكثر من ثلاثين حملاً قال انما الحمل ملء الزورق وهذا الذي قاولتك عليه واطلق الشراع وسار وغادر اباهُ ينظر اليه مبهوتاً وبقي ابوهُ شاخصاً اليه ببصره حتى غاب عنهُ ومن تلك الساعة غيّر ظنهُ فيه . وبعد ايام قلائل دعاهُ

الى مدينة نيو يورك واشركهُ في اشغالهِ والتي حملها على عاتقهِ تدريجًا وما بلغ السبعين من العمر باع كل سفنهِ واشترى اسهمًا في سكة الحديد فقال اصدقاؤهُ انهُ سيخسر فيها كل مالهِ لجهلهِ احوالها ولكنهُ ربح بها ربحًا فاحشًا فزادت ثروتهُ اضعافًا وزاحم مناظريهِ وانتصر عليهم وخسّرهم خمسة واربعين مليون فرنك صفقة واحدة وربح في خمس سنين ٢٥ مليون فرنك . وجاوز الثمانين وهو كبير الهمة شديد البأس فائق القوة لا يشتكي هرمًا ولا عجزًا وعاش كل ايامهِ سريع الذكر شديد الحفظ قلما يحتاج الى مراجعة الدفاتر مع اتساع اشغالهِ وكثرة علاقاتهِ وكان يستعمل دفترًا صغيرًا يخط عليهِ حسابهُ بارقام غريبة لا يعرفها غيرهُ ولم يحسن تهجية الالفاظ فكان يغلط في تهجية ابسطها واكثرها استعمالاً ولكنهُ كان صريح الانشاء كثير الاختصار في الكتابة يغيظهُ طول التقارير غيظًا شديدًا ويحتقر الذين يسهبون فيها

ومن مناقبهِ الحسان انهُ لم يكن يتكلم عن نفسهِ الاَّ نادرًا قيل انهُ لم يفتخر في حياتهِ الاَّ مرة وهو ابن احدى وثمانين سنة بقولهِ اني منذ ولادتي كنت اكسب مليون ريال في السنة على وجه التعديل والذي يزيدني سرورًا اني كنت اكسب بني وطني ثلثة اضعاف ما اكسب وكان يومئذٍ اغنى اهل بلادهِ فاوصى باكثر من ٧٥ مليون فرنك وصيات خصوصية وترك ٤٥٠ مليون فرنك لابنهِ وليم فدربلت

فلما دخل وليم هذا على اموال ابيهِ وجدها حملاً ثقيلاً لا يطاق وشاغلاً عن ملذات الحياة فكان يجلس في قصرهِ الملكي محفوفًا بكل ما ابتدعتهُ عقول البشر من انواع الزخارف والمحاسن والزينة والابهة و يتحسر على ايام مضت وهو يملح ارضهُ ويتمتع بلذات العيش ونعيم الراحة في كوخهِ . وكان كابيهِ في قوة العقل وجودة الراي في ادارة الاشغال والصبر والثبات على اتمامها وكامهِ في كرامة الاخلاق ولين الطباع ولكنهُ لم يكن كابيهِ قادرًا على خوض الاشغال في اوقات الاشغال وعلى اعتزالها وصرف الفكر عنها الى السرور والحبور في اوقات الانس والراحة فكنت تراهُ دائم القلق كثير الهواجس منشغل البال مضطرب البلبال ليلاً ونهارًا لا يكف عن الشغل والحساب على نحافة جسمهِ واطافة بنيتهِ فزادت ثروتهُ ونمت نماء عظيمًا ولكن نحل جسدهُ وانحطت قوتهُ . وما زاد عيشهُ كدرًا ونغصًا مناصبة المناظرين وسعاية الوشاة ومكايد الحسّاد وطموح الطامعين وغدر الماكرين و وعيد المبغضين حتى حُرم لذة الحياة وحسب ثروتهُ مصدر شقائهِ وبلائهِ فكتب الى بعض اصدقائهِ يقول اني اجد مئتي مليون ريال حملاً ثقيلاً لا يحملهُ انسان فقد سحقتني سحقًا وموتني تمويتًا حتى اني لا احسب تحميلهُ الولد من اولادي اثمًا وظلمًا اذ لست اجني منهُ لذة ولا احصل نفعًا ولا اراني اسعد من صاحب نصف مليون في

شيء بل اراهُ اسعد مني في كل شيء يلذ بملاذ الحياة ويتمتع بنعيمها ويسكن بيتاً كبيتي ويتمتع بصحة احسن من صحتي ويعيش عمراً اطول من عمري ولا يخاف ان يركن الى اصدقائهِ وانا اخاف ان اركن الى احد فاذا متُّ وخلفت هموم هذا المال واثقالهُ لاحد اولادي كان بلية عليهِ لا سعادة لهُ" اه

ومات بعد كتابة ما تقدم بسنة تاركاً لكل من ابنيهِ ٢٥٠ مليون فرنك علاوة على الاموال الطائلة التي حشدادا في حياتهِ واوصى بخمس مئة مليون فرنك للبر والاحسان والهبة للناس عينهم وكان نبأ وفاتهِ اضخم من نبإ وفاة الملوك . قالت جرائد بلادهِ في تركتهِ "ولم نسمع ان احداً من البشر ترك كما ترك فلطالما سمعنا ان الملوك ماتوا عن ثروات طائلة والسلاطين فرّطوا بخزائن الامة واموالها ووزراء المالية كوموا المال عندهم كوماً والصيارفة ضاقت خزائنهم عن اموالهم ولكنا لم نسمع قط ان انساناً واحداً يهب ما وهبهُ هذا الانسان من الهبات التي تُعد فيها الالوف على الالوف والملايين على الملايين وينهال فيها النضار انهيال المياه في مجاري الانهار حتى يبهر عقول الناظرين ويحير عقول الحاسبين" اه

حقيقة التنويم وطرقهُ

سنبدي لك الايام ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ
ويأتيك بالاخبار من لم تبعْ لهُ بتاتاً ولم تضربْ لهُ وقتَ موعدِ

العالم المجرّب كالقاضي العادل لا يحكم بصحة الدعوى او فسادها ما لم يتفحصها جيداً . وغير خافٍ ان بعض الناس يدّعون على اعمال غريبة مخالفة لمجرى الحوادث الطبيعيّة المألوفة كالرقية والزار والمندل والتنويم وهذه الاعمال تعرَض على رجال العلم ليبدوا رأيهم فيها ويبينوا سببها وعليهم ان ينظروا فيها من وجهين الاول من حيث حقيقة حدوثها والثاني من حيث سببها الحقيقي . وقد صاروا كفاةً للبحث في هذه المسائل والحكم فيها من حين أُطلقت لهم حرّية البحث وابداء الرأي واما قبل ذلك فكان البحث والحكم مقيدين بقيد التقاليد والسلطة الدينية والمدنية . ونتج من حرّية البحث التي أُطلقت لاهل العلم أن عُرفت اسباب بعض الحوادث التي كانت مجهولة السبب او منسوبة الى اسباب وهميّة فصارت تستخدَم كبقية الاسباب الطبيعية . وكل ما عُرف جيداً من هذا القبيل قليل جداً ولكن معرفتهُ قد مهّدت السبيل الى معرفة غيرهِ ولذلك